عنوان البرنامج: الدراسات الاستشرافية
الوحدة الثالثة: المنظور الإسلامي للاستشراف
الدرس الثاني: أساليب وأسس الاستشراف الإسلامي (2)
اسم المحاضر: الدكتور خالد ميار الادريسي

أساليب وأسس الاستشراف الإسلامي (2)

أما الأساليب أو الطرق المشروعة في استشراف المستقبل من المنظور الإسلامي، فيحددها الباحثون في[1]: الوحي والدعاء والشورى والمشاهد والرؤى والفراسة والإلهام والتحديث والكشف وكذلك إعمال العقل والتدبر.

وبالنسبة للوحي فإنه مخصوص بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم من جهة التلقي المباشر وجهة الفهم والإدراك عن الله. فالوحي هو المصدر الأساس لمعرفة الغيب، وهو مصدر موثوق لأنه من الله سبحانه وتعالى.

وباعتبار الوحي متجلي في كتاب الله وسنة رسوله قولا وأفعالا وأحوالا، فإن ذلك مصدر يستند إليه لفهم أسس بناء ممارسة استشرافية سليمة، إذا توافرت شروط إدراك الاشارات الربانية في الخطاب القرآني؛ ولا يمكن على الإطلاق التعسف في تأويل آيات وإسقاطها على وقائع اجتماعية وسياسية والادعاء بأن الممارسة الاستشرافية مستندة إلى الوحي، بل المفترض إدراك قواعد وأصول التدبر الاستشرافي من القرآن من خلال فهم القوانين المتحكمة في التحولات الصغرى والكبرى. فاليوم يتم الحديث عن منهج «الإشارات الخافتة» Les signaux faibles[2]، لامتلاك يقظة استراتيجية واستشرافية، والإشارات الخافتة، والصريحة موجودة في الواقع، وتتطلب التقاطها لتكوين صورة أولية على مسارات مستقبلية ممكنة. والقرآن الكريم يمنحنا إمكانية الإنصات لنبض التحولات الكونية. وذلك من خلال القواعد الكلية التي أشار إليها والمتعلقة بالسنن الكونية.

1. انظر كذلك: عبد الله بن محمد المديفر، الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية، ص: 583 – 656.
2. Cohen, Phillipe : Signaux Faible, mode d'emploi. Editions organisations. 2010.

إن الوحي هو المخبر عن المغيبات المتعلقة بالمستقبل الأخروي وكذلك المستقبل الدنيوي. وهذا المستقبل الدنيوي غير مسطر بتفاصيله في القرآن، وإنما يمكن استنباط صوره المتعددة من خلال القصص والتوجيهات والإشارات المتضمنة لأحوال وأطوار الأمم والحضارات[3].

والسنة النبوية متضمنة لكثير من الأخبار المغيبة والإشارات المجملة أو المفصلة حول المستقبل. فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أجله ولم يفهم ذلك سوى أبو بكر رضي الله عنه في حجة الوداع. وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس عامة ممن حضر أمورا مستقبلية، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما، فأخبرنا بما يكون في أمته إلى يوم القيامة، وعاه من وعاه، ونسيه من نسيه» فيما رواه الإمام أحمد في مسنده. وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما. ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به. حفظه ونسيه من نسيه. قد علمه أصحابي هؤلاء. وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره. كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه. ثم إذا رآه عرفه»[4].

ويقول أحد الباحثين[5]: «فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأشياء كثيرة ستقع بعده وهي على أقسام:

- ما وقع وفق ما قال صلى الله عليه وسلم. وقد استوفى البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» ما ورد من ذلك حتى زمانه بالأسانيد المقبولة، ومن أمثلته اقتتال فئتين عظيمتين، وظهور الفتن وكثرة القتل.
- ما وقعت مباديه ولم يستحكم. ومن أمثلته: كثرة الزلازل وخروج الدجالين الكذابين.
- ما لم يقع منه شيء، ولكنه سيقع.
- وقد تتبع باحث معاصر نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم فتحصل لديه (188) نبوءة، منها (28) نبوءة لم تتحقق بعد»[6].

ويعتبر البعض الدعاء أسلوبا استشرافيا ولا نرى ذلك، وإنما هو وسيلة لطلب خير أو دفع شر وليس أسلوبا نبصر به ما سيكون. فالدعاء هو مخ العبادة وهو مؤشر الرجوع الى الله في كل شيء وهو دليل على اضطرار المسلم لربه، وبه يتحقق جلب المنافع ودفع الآفات، إن أحكمت شروطه.

3. انظر: عمار توفيق أحمد بدوي: مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم مذكرة ماجستير في أصول الدين، بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005.
4. رواه البخاري.
5. عبد الله بن محمد المديفر، مرجع سابق، ص: 590.
6. انظر: محمد ولي الله عبد الرحمان النووي: نبوءات الرسول ما تحقق منها وما لم يتحقق. دار السلام، الطبعة السادسة، 1414 هجرية.

أما الشورى والتي هي طلب مشورة فرد من أهل الخبرة أو جماعة حول موضوع معين، فلا يمكن اعتباره أسلوبا استشرافيا ما لم يتقيد بشرط أساس وهو انخراط الجماعة في تفكير فردي وجماعي في مشاهد مستقبلية لقضية ما، مع توفر معرفتهم وخيرتهم لذلك المجال وتتساوى معرفتهم بمقاصد الشريعة.

وأما أسلوب المشاهد فإنه يتشابه مع تقنية السيناريو من حيث المبدأ، فإن المشاهد عبارة عن صياغة ذهنية لمسار معين يتم اختياره لنفعه أو قلة ضرره؛ والأمثلة من السنة النبوية متوفرة في ذلك.

أما الرؤى فلا يمكن التعويل عليها لاستبصار المستقبل، إذ يشترط في الرائي أن يكون من أهل الصلاح وأن تكون له معرفة بتعبير الرؤى، وقد يختلط الأمر على الناس، ويصعب التمييز بين حديث النفس والرؤيا الصادقة. ولا شك أن هذه الأخيرة، مظهر للصلاح والتقوى والروع، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»[7] .

أما الفراسة فهي نور يميز به المؤمن بين الحق والباطل ومدى فراسته على قدر طاعته وورعه وعلمه وتقواه. فإن كان المستغل بالممارسة الاستشرافية العلمية، يتوفر على فراسة واسعة فإن ذلك يكون له داعما في فهم المؤشرات والمعطيات والتمييز بين الصحيح والسقيم منها وبالتالي صياغة مشاهد مستقبلية ممكنة، مع تسليمه التام والكامل بأن الله يفعل ما يشاء ويبدل ما يشاء ويمحو ما يشاء.

أما الإلهام فإنه مقام عال وكما قال الراغب فإنه: «إلقاء الشيء في الروح ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملأ الأعلى». فيتولد لديه «علم شيء في نفسه من غير تقدم ما يوصل إليه بحس استدلال»[8] كما قال الفيروزابادي. ويمكن أن يقول عليه في استبصار المستقبل إن كان المشتغل بالاستشراف من أهل الإلهام وإلا فلا سبيل للناس إلى ذلك. كما أن التحدث هو فضل من الله حيث يمكن يجري على لسان العبد، حديثا ملقى من الغيب ومحفوظ من همس الشيطان وكان لسيدنا عمر رضي الله عنه من المحدثين ولا بعدم الخير في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أن الكشف وسيلة أخرى داعمة لفهم تحولات المستقبل، والكشف من ثمرات التقوى والورع والاستقامة والاشتغال بذكر الله والعلم والاجتهاد في الطاعات وتزكية النفس. أما أعمال العقد والتدبر فإنه أسلوب متوفر لكل عاقل عالم قاصد لوجه الله في استكشاف الفرص المتاحة أمام الأمة الإسلامية والمخاطر التي تهددها.

إن العقل المستنير بنور الله والنفس الزكية النافرة من معصية الله والطالبة لطاعته والنية الخالصة

7. رواه البخاري.
8. عبد الله بن محمد المديفر، ص: 644.

لوجه الله، مع توفر العلم والخبرة والدراية بالواقع، مطايا لاستبصار المستقبل. ولذا فإن العالم الإسلامي مطالب بتنمية الكفاءات والمهارات الأخلاقية والنفسية والعلمية لدى المتعلمين وتزويدهم بمختلف المناهج وصقلها ومواءمتها مع روح المقاصد الشرعية، لتتمكن من تكوين أجيال من علماء الاستبصار بالمستقبل والقادرين على إدراك وفهم تحولات العصر.

ويمكن إجمال الأسس المعتمدة في الاستشراف الإسلامي[9] في أسس عقدية ونفسية وقيمية وعملية.

فالأسس العقدية مرتبطة بأركان الإيمان المعروفة، إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وآخرته وقضائه خيره وشره. فلا استشراف إسلامي بدون اعتقاد بأن الله فعال لما يريد، وأن مواجهة الأقدار لا تكون إلا باللجوء إليه، فصناعة المستقبل تنطلق من الرغبة في مواءمة الأفعال ما مراد الله. إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

فالاعتقاد السليم يحمل المستشرف على طلب مستقبل لا يلبي بالأساس هوى النفس وميولاتها المتعددة وإنما السعي إلى بناء مستقبل فردي وجماعي، يحقق وظيفة رعاية حقوق الله وحقوق العباد وحقوق الأشياء أي الطبيعة.

أما الأسس القيمية والنفسية فهي تابعة للأسس العقدية، وهي توكل على الله وتقوى وورع واستقامة وصبر ورضا بالله وبذل سخاء وإنابة إلى الله. وهي تابعة للأسس المستبصر للمستقبل التواضع والخضوع لجلال الله والركون إلى تدبيره والاضطرار إليه في كل شيء اتقاء منازعة الحق والتوكل عليه في جلب المنافع ودفع الآفات.

فالقيم هي المطلوبة لصناعة مستقبل ليس للعالم الإسلامي وإنما للبشرية جمعاء، ذلك أن الرغبة في الاستحواذ على المستقبل والتحكم في مصائر الناس والزج بالعالم في الفوضى والمجهول هي مفاسد عظيمة. فالأخلاق هي التي تصنع مستقبلا نافعا للجميع، وهي كما أن أخلاق المتعة والعلو على الخلق والبطش هي التي تصنع مستقبل كله خراب.

أما الأسس النفسية فيربطها البعض[10] بروح التفاؤل ونبذ التشاؤم والتوسط بين الفرح والحزن والنهي عن الخوف من المستقبل ذلك الخوف المرضي، وإلا فإن التوجس منه وأخذ الحذر والحيطة فإنها أمور مطلوبة.

9. انظر: محمد بن أحمد حسن النعيري: أسس دراسة المستقبل في المنظور الإسلامي، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، 2009. ص: 131 – 160.
10. نفسه، ص: 154 – 160.

أما الأسس العملية فهي كفاءة إدراك وفهم السنن الكونية والأخذ بأنفع المناهج وأساليب التفكير والاستقراء والتخطيط والاعتبار بمآلات الأفعال[11] والاعتماد على مشورة أهل الخبرة والاختصاص وعدم الركون إلى الرأي الفردي والتحرر من التحيزات الفكرية والأخذ بشروط وأداب الاختلاف والسعي في طلب الحكمة أينما وجدت.

11. انظر:

– عبد الرحمان بن معمر السنوسي: اعتبار المآلات ومرعاة نتائج التصرفات دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1424.